

تفسير قوله: حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ

{ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا } من فوائد الريح كما أن الله ينسرها مبشرة بالمطر منتشرة أمامه، كذلك يحمل عليها المطر؛ لأن السحاب هو غير المطر بإجماع أهل اللسان، فالسحاب الوعاء الذي فيه المطر، والمطر هو نفس الماء وهو نفس الودق. وهذه الآية من سورة الأعراف تبين أن الماء أنه فيه ريحا وأن ذلك الريح ثقيل جدا ثقلا عظيما، وأن الله يحمله مع ثقله على متن الريح، ثم إن الريح تذهب به إلى حيث شاء الله جل وعلا فيسبيل ذلك المطر من الثقوب والخلال التي في ذلك السحاب الذي هو الوعاء وقد بين الله كيفية هذا في سورة النور في قوله: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا } أي يسوق سحابا { ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا } أي متراكما بعضه فوق بعض { فَتَرَى الْوَدْقَ } وهو نفس المطر الذي هو الماء { يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ } أي من ثقوب السحاب. وخلال الشيء ثقوبه وفروجه، فهو يتقاطر من الثقوب والفروج التي جعلها الله في الريح الذي يحمل فيه المطر، وبين أن ذلك الريح ثقيل جدا في قوله: { حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ } أي حملت؛ { أي حملت. والعرب تقول: أقلته ناقته أي حملته. والمراد أقلت الريح أي حملت الريح سحابا جمع سحابة، وهي ريح الذي فيه الماء، وهي المسماة ثقالا جمع ثقيلة أي سحابة ثقيلة وسحاب بالجمع ثقال، والله صرح بأنها ثقال؛ أي شديدة الثقل لما هي موقرة به مملوءة به من الماء. وهذا نص صريح من رب العالمين الذي هو أصدق من يقول أن الله يجعل مع المطر رياحا، وأنه يحمل تلك الأوعية الثقيلة جدا على متن الريح، ثم إنه إذا أراد نزول المطر إلى محل أخر المثل الماء من الثقوب والفروج والخلل الذي في ذلك الريح الذي فيه الماء، كما قال: { فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ } . وهذا الماء ينزله الله جل وعلا من حيث شاء؛ فهو قادر على أن ينزله من نهر تحت العرش، وعلى أن يجعله من بخار البحر ثم يرفعه فيجعله ماء صافيا ويجعله في المزن وهو قادر على كل ذلك. وأكثر السلف على أن الماء ينزل في السحاب من نهر تحت العرش. وبعض العلماء يقول: لا مانع من أن يرتفع من بخار البحر ماء صاف عذب تتحلل منه الأجرام الملحة، ثم يجعله الله في وعاء المزن، ثم يحمله على الريح، ثم يلقيه حيث شاء، كما قال مسلم الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقلا دحاها فلما استوت شدها جميعا وأرسي عليها الجبال وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا إذا هي سبقت إلى بلدة أطاعت فكبت عليها سجلا وبهذا تعلمون أن المطر إنما ينزل بأمر الله وقدرته وإرادته، يعلم قدره ويجعله في أوعية السحاب ويحمله على متن الريح، ثم يخرج من الثقوب والخلال التي في الوعاء الذي هو فيه وهو السحاب كما قال وهو أصدق من يقول: { فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ } . والعرب كانوا يزعمون أن بعض المزن يمتلىء من البحر وهو معروف في أشعارهم، ومنه قول أبو ذؤيب الهذلي سقى أم عمرو كل آخر ليلة حناتم غر ماؤهن زجيج شربن بماء البحر ثم ترفعت متى ليج خضر لهن نسيج يعني ليج البحر. منه قول طرفة بن العبد لا تلمني إنها من نسوة رقد الصيف مقاليت نزر كينات البحر يمدن كما أنبت الصيف عساليح خضر والشاهد أن المطر لا تنزل قطرة منه إلا بمشيئة خالق السماوات والأرض وتبديره. وقد بين لنا كيف ينزله أن الله يسوق سحابا وهو المزن الذي هو وعاء الماء، ثم يجمع بعضه إلى بعض حتى يجعله متراكما بعضه فوق بعض، ثم يخرج الماء من تلك الثقوب والفروج التي هي خلال ذلك السحاب. وهذا صريح قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ } ؛ أي ترى ماء المطر يخرج من خلال جمع خلل، من الثقوب والفروج التي في ذلك السحاب الذي هو وعاء الماء، ذهب به الملك المقدر ينزل المطر حيث شاء، ويحمل السحابة الموقرة الثقيلة بالماء على متن الريح، ثم يأمرها بأن تصبها في المكان الذي شاء بتصريف من عالم قدير، عالم بقدر المطر الذي ينزله ويقدر الرشاش الذي ينزله. وقد بين تعالى أن كثيرا من الخلق سيكفرون بهذا؛ كالذين يزعمون أن المطر لم ينزله خالق، وإنما هو أمر طبيعي؛ كما يزعمه الكفرة الإفرنج وأتباع الإفرنج؛ لا يعترفون بأن المطر ينزله حكيم خبير. بل يذهبون إلى فكرة كافرة ملحدة يقررها كثير ممن لا يفهم ثم يطمسها ويغره عموم الناس أن يقول بمشيئة الله مجاملة، وهو يعتقد الطبيعية كما يعتقد الكفرة الإفرنج الذين قرروا هذا؛ فهم والعياذ بالله كالأنعام بل هم أضل. لا يعترفون بخالق حكيم مبدئ ينزل المطر؛ فيزعمون أن نزول المطر أمر طبيعي، وأن حرارة الشمس إذا تابعت على البحر حتى بلغت مائة درجة تبخر ماء البحر. وكذلك احتكاك لهيب الريح يبخره فيتصاعد بخار الماء، وتتخلل منه الأجرام الملحية، ثم يتكاثف البخار بعضه فوق بعض، ثم إذا اجتمع ولاقى هواء بصفة كذا جاءت ريح وفرقته وصار هو الرشاش بطبيعته؛ فطبيعة المطر من غير فاعل مختار. وهذا كفر بالله وإلحاد سافر، ونفي للخالق الذي لا يكون شيء إلا بأمره وقضائه، والله قد بين أن كثيرا من الناس سينولون إلى هذا الكفر والإلحاد . لأنه لما ذكر المطر في سورة الفرقان قال: { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا } { وَأَنْزَلْنَا } { نَسِبَ الْإِنزَالِ لِنَفْسِهِ بَصِيغَةَ التَّعْظِيمِ، قال: } { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِتُخَيَّبَ بِهِ بَلَدًا مَيْتًا وَتُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسِيَّ كَثِيرًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ } ؛ يعني لقد صرفنا الماء بين بني آدم. فأكثرنا المطر في عام على بعض الجهات فأصبحت لنختبر أهلها؛ هل يشكروننا على ذلك الإنعام؟ وصرفنا الماء في بعض السنين عن بعض البقاع حتى تمحل وتجذب لنختبر أهلها؛ هل يصبرون؟ وهل ينيبون إلينا ويتضرعون لنكشف عنهم الضراء؟ فهو تصريف حكيم خبير يصرف الماء بحكمته وإرادته، وينزله بمشيئته على هذا الوجه الأعظم الكريم الذي ينزل رشاشا. والله لما قال: { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا } ؛ لأجل أن يذكركم من جاءهم الماء فأخصبوا فيشكروا نعمة الله، ويتذكر من صرف عنهم الماء فأجذبوا لينبؤوا إلى الله وينبؤوا إلى الله، ثم قال: { قَاتَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا } قَاتَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا بالله جل وعلا. ومن أعظم الكفور الذي أبوا إلا إياه قولهم: إن الماء ينزله بخار كذا وكذا، وطبيعة كذا وكذا؛ ففقد صدق الله جل وعلا. ولا تجد نية ولا إلحاد يتجدد في الزمان إلا وهو مشار إليه في القرآن، كقوله في هذه الآية الكريمة: { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا } وإتباعه في ذلك بقوله: { قَاتَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا } ؛ أي قاتى أكثر الناس إلا كفورًا. وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم كلمهم صبيحة ليلة كان فيها مطر، وقال لهم: { هل سمعتم ماذا قال ربكم البارحة؟ قالوا: ماذا قال؟ قال: أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكوكب، وأصبح من عبادي كافر بي مؤمن بالكوكب؛ أما من قال: مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا فهو كافر بي مؤمن بالكوكب } وأكفر منه بالله من قال: مطرنا ببخار كذا وكذا لا يفعل الله وإرادته. فعلى المؤمن أن يعتقد أن المطر أنزله حكيم خبير، وأنه ماء ينزله من حيث شاء إما من السماء، أو من حيث شاء الله جل وعلا، ويجعله في أوعية السحاب فتمتلئ حتى تكون ثقيلة جدا كما قال هنا: { حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا } والثقال جمع ثقيلة، وإنما كانت ثقيلة لكثرة ملئها من الماء. وصرح بأن الريح ثقلا، أنه يحملها على ظهر الريح حتى تمطر في الموضوع الذي شاء الله. وصرح بأنه هو الذي يصرف المطر بإرادته ومشيئته، فينزله على قوم فيخصبوا؛ ليختبروا هل يشكروه؟ ويرفعه عن قوم فيجذبوا؛ ليختبروا هل ينيبون إلى الله ويتوبون؟ وهذا من غرائب صنع الله وعجائبه!! والله جل وعلا أمر خلقه أن ينظروا في هذا وتوابعه؛ حيث قال: { قَلْبُظَّرَ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ } لام الأمر هنا صيغة أمر تقتضي الوجوب، معناه يجب على كل إنسان أن ينظر إلى طعامه. يعني يا أيها الإنسان المسكين الضعيف، أنظر إلى طعامك، انظر إلى الخبز الذي تأكله، ولا تستغني عنه؛ من هو الذي خلق الماء الذي شربت به أرضه حتى نبت ياذن الله؟! أيقدر أحد غير الله أن يخلق الماء، ويبرز جرمه إلى الوجود من العدم؟ هب أن الماء خلق وصار موجودا؛ من هو الذي يقدر على إنزاله بهذه الطريقة الحكيمة، وإخراجه من خلال السحاب رشاشا لا يضر بأحد؟! فلو أرسل الله المطر كله قطعة واحدة مجتمعة لأغرقت الدنيا ودمرت البلاد والعياد؛ فهو ينزله رشاشا من خلال السحاب لئلا يضر بالناس، وينزله بقدر معلوم بحيث تقوم به الحاجة، ولا يجعله طوفانا يغمر الأرض لئلا يهلك من عليها كما وقع لقوم نوح. هب أن الله أنزل الماء بهذه الطريقة العظيمة الحكيمة؛ هل يقدر أحد غير الله أن يشق الأرض عن مسمار النبات الذي يكون منه الحب الذي تأكلون؟! هل يمكن أحد على الله أن يشق الأرض ويخرج منها مسمار النبات؟ الجواب لا. هب أن مسمار النبات خرج؛ من هو الذي يقدر على أن يريبه وينميه؟ هب أنه نما وكبر؛ من الذي يقدر أن يشقه ويخرج منه السنبل؟ هب أن السنبل خرجت؛ من هو الذي يقدر أن يريها وينقلها من طور إلى طور حتى تكون حبة؟